روسيا الكيفية

د. وفاء بنت عبد الله المزروع

روسيا الكييفية

المقدمة :

لم يعرف الروس بهذا الاسم حتى وقت طويل من تاريخهم ، ولا يمكن أن نتتبع بداياتهم بالتفصيل بسبب نقص البيانات التاريخية ، فلم يتعلم الشعب الروسى فن الكتابة حتى القرن التاسع الميلادى ، لذلك لم يترك أية سجلات مكتوبة عن حياته ، ولهذا لم يكن أمام المؤرخين إلا الاعتماد على مصادر أخرى للحصول على معلومات عنهم مثل : الاكتشافات الأثرية لمدافنهم ، وبقايا منازلهم ولوازمهم العائلية ، والمعلومات والتفسيرات عن حياتهم بواسطة الكتاب المعاصرين اليونانيين واللاتينيين والبيزنطيين والعرب ، إلا أن تلك المعلومات وجدت غير كاملة ومتناقضة .

يبدأ التاريخ المبكر للشعب الروسى منذ بداية العهد المسيحى حيث كان أسلاف الشعب الروسى يعيشون فى المناطق التى أصبحت : بولندا الشرقية وأوكرانيا الغربية وروسيا البيضاء ، وكانوا لايزالون شعبًا بدائيًا يتحدثون اللغة السلافية ، والتى اتخذ أصحابها طريقهم إلى الهجرة البطيئة والمستمرة . لكننا لا نستطيع أن نعرف تاريخهم بدقة ، غير أنه مع حلول القرن السادس انفصلوا وانقسموا إلى ثلاث مجموعات تركت تأثيرات مختلفة للمناطق التى مروا بها ، واستقروا فيها وانقسموا إلى ثلاث مجموعات : الغربية والجنوبية والشرقية .

١ – هاجر السلاف الغربيون إلى أنهار الألب والأودر والفيستولا ، وتأثروا بالحضارة الغربية (الأوروبية) ، واعتنقوا الكاثوليكية ، واستخدموا الحروف اللاتينية .

٢ – أما السلاف الجنوبيون ، فقد اتجهوا عبر جبال الكاربثيان إلى البلقان ، وأصبحوا تحت تأثير الحضارة البيزنطية ، واعتنقوا المذهب الأرثوذكسى ، واستخدموا حروفه .

٣ – أما السلاف الشرقيون (أسلاف الروسيين) وهم موضع الدراسة ، فقد اتجهوا شرقًا إلى بحيرة بيبوسى وبحيرة المين ونهر الدنيبر والأوكار والفالوج ، وتأثروا بالحضارة البيزنطية وأصبح بينهم وبين السلاف الجنوبيين مميزات متشابهة واعتنقوا المذهب الأرثوذكسى فيما بعد .

إن لفظ روسيا لم يوجد فى لغة من اللغات للدلالة على البلاد المعروفة الآن بهذا الاسم إلا إبان القرن التاسع الميلادى ، واستخدم هذا اللفظ عن أحوال هذه البلاد قبل هذا التاريخ من باب التجاوز .

كما أن معظم أهل روسيا يرجعون إلى السلاف الشرقيين ، وطوال العصور الوسطى ظل سكان السهول والبرارى الروسية فى عيشة بعيدة عن الأفكار والمثل والظواهر الحضارية التى شكلت الشعوب اللاتينية والتيوتونية . ثم إن الحركات الكبرى التى هزت غرب أوروبا لم تعن روسيا فى قليل أو كثير ، ولم يمس أولئك الروس شىء من حركة إحياء العلوم القديمة ، كما لم تسهم حركة الإصلاح البروتستانتى بشىء أيضًا ، فعاشوا بعيدين عن الحضارة اللاتينية والدراسات التى عكفت عليها أوروبا العصور الوسطى ، كما برئ تاريخهم من برلمانات أو جماعات ، كما أنهم نجوا من الحروب الدينية التى ملأت أوروبا .

والخلاصة : أن روسيا ظلت فى عزلة دون أن تؤثر أو تتأثر بتجربة مما مر من تجارب أوروبا .

هذا وقد قسمت هذه الدراسة إلى : مقدمة وخمسة مباحث ، تناول الجزء الأول أصل الروس ، وتناول الجزء الثانى طبوغرافية بلاد الروس ، ثم انتقلت إلى الجزء الثالث

وهو عن استقرارهم وبداية تكوينهم . أما الجزء الرابع فتناول تنمية القوة فى كييف. أما الجزء الخامس فكان عن روسيا الكييفية وعلاقة الروس بالبيزنطيين .

أصل الروس :

بدأ فجر التاريخ الروسى فى الظهور حول شواطئ البحر الأسود؛ حيث توطنت مجموعة من الجاليات اليونانية القديمة وخلقت حركة تجارية واسعة ، وكان لها نشاط زاهر أحدث أعظم حضارة للقبائل الساكنة قبل أولئك اليونانيين حول شواطئ البحر الأسود فى العصور القديمة ، على أن هذه الحضارة التى أينعت ثمانية قرون من ٤٠٠ ق. م إلى ٤٠٠م ودلت آثارها المختلفة على مبلغ ذوقها الرفيع لم تلبث أن غدت أثرًا بعد عين بسبب ما غلب عليها من غزوات البرابرة ، والحقيقة، أن ما كان متوقعًا حدوثه من اتصال الروس بآداب اليونانيين الأقدمين وفنونهم لم يكن يحدث حتى تلاشى فجأة و لم يتجدد بعد ذلك أبدًا .

ويتضح من ذلك: أن الروس فى العصر الحاضر لا يدينون إلى هذه الجاليات اليونانية القديمة بشىء سوى ما تبقى من آثار هذه الجاليات فى المتاحف . إن العوامل التى يرجع إليها الفضل فى أول نوع من الحكومة بين الروس لم تكن يونانية بل كانت إسكندیناوية ، وهذه لم تأت من طريق سواحل البحر البلطى والبحر الأسود ، ففى ثنايا هذه الأنهار ومنحنياتها ولاسيما نهر نيفا ودنيبر أنشأ السكندناويون محطات تجارية لأنفسهم منذ القرن الأول الميلادى فيما يبدو ، واستقرت حول هذه المحطات جموع عظيمة فى القرن الثامن الميلادى ، وأخذت هذه الجماعات الروسية عندئذٍ تتاجر مع السكندناويين فى منتجات الغابات من الفراء وعسل النحل وصمغ العسل ، ثم تطورت هذه إلى مدن ذات حكومات مستقلة ومتاجر ضخمة ، ولما تعرضت لـه متاجر هذه المدن من عادية القبائل التركية والخزرية والبحرية كذلك ، وما تعثرت به المدن نفسها من منازعات داخلية قامت فئات من شجعان الشماليين السويديين بتوفير الأمن وجمع الضرائب وحماية القوافل . من هذه الفئات يبدأ تاريخ روسيا وأهمها فئة الزعيم روريك Rurik

الذين سماهم جيرانهم الأصليون فى فنلندا قبل رحيلهم جنوبًا باسم: روستى Rusty، وهى تسمية لصقت بهم وصارت علمًا جغرافيًا على جميع البلاد التى حلوا بها منذ سنة ٨٦٣ وتلك عدا تسميتهم باسم الفرانجيين Varegues ومعناها الأسلاف فى لغات الشماليين ، ذلك أن جميع الأنهار والبحيرات الممتدة من البحر البلطى والبحر الأسود لم تلبث أن غدت فى قبضة أولئك الشجعان الشماليين بعد أن ثبتوا أنفسهم فى نوفجورود[1] Novgorod وكييف Kiev وأسسوا تجارة واسعة من الرقيق ، وظلوا يغامرون بأنفسهم أقصى مغامرة فى جرأة منقطعة النظير ، فأغاروا على القسطنطينية ، وحاولوا فتح بلغاريا وتجرأوا على الإمبراطور البيزنطى فى عاصمته القسطنطينية ونالوا بحد السيف هذه العاصمة المتعالية أنواعًا وألوانًا من الامتيازات التجارية .

والواقع أن الشماليين تعلموا الكثير من مبادئ الحياة السياسية بعد احتكاكهم بالبيزنطيين .

وبمجىء روريك وإخوته سنة ٨٦٢م وصل هؤلاء الأمراء إلى بلاد الصقالية (السلاف) وأخذوا فى سياستها وتدبير شؤونها ، فبنى أكبرهم روريك مدينة فى سهل منبسط أطلقوا عليها لادوجا Ladoge وجعلها عاصمة البلاد ، وسكن الثانى مدينة بيلو أوزيرو Beloozero ، والثالث اختار مدينة إيزبورسك Izborsk . ومن ذلك الحين صارت أرض الصقالية (السلاف الشرقيين) تدعى بلاد الروس نسبة إلى عائلة الأمراء، وابتدأ تاريخ المملكة الروسية من سنة ٨٦٣ م ، وبعد سنتين مات الأميران فاستلم روريك زمام الحكم بلا معارض ، واختار مدينة نوفجورود عاصمة لبلاده ، ومنها تسلل الأمراء والملوك الروس .

وقد شعر الصقالبة نوعا من الراحة تحت سلطة الأمير ريوريك ، وقلت الفتن والمقاومة فيما بينهم ، وانتشرت قواهم وصاروا يؤلفون إمارة قوية يخشاها الجيران ولا يقوون على محاربتها أو قهرها[2] .

---

(1) Edward Acton: The Present and the Past, Russia 1987- London- P. 17.

(2) Oblonsky, Companion to Russian Studiesan Introduction to Russia History. P. 16

محمد محمد أمين : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، القاهرة، ص ١٧٤ — ١٧٦ .

ولقـــد استمدت روسيا كيانها الاجتماعى والسياسى من امتزاج جموع متعددة من المستوطنين ، ومن أوائل هؤلاء الصقالية الذين سكنوا مناطق السهوب ، ويرجع هؤلاء لغويا إلى الشعوب الإيرانية . أما اجتماعيًا فهم أقرب فى العادات إلى الشعوب المغولية، ظهـــروا فى الأقســـام الجنوبية الروسية منذ القرن السابع ق. م . وكانت لهم علاقات تجاريـــة مـــع المستعمرات اليونانية فى تلك الجهات ، وأشار إليهم هيرودوت فى القرن الخامس ق. م بأنهم منتشرون فى مناطق الدانوب والدنيبر والدون[١] .

ويذكر المؤرخ بيتر Baynes بأن الرومان أطلقوا على السلاف (السكلاف) وكانوا يـــتجولون مـــع قـــبائل مشـــابهة لهـــم فى جهات الدانوب الشمالية فى أواسط القرن السادس[٢]. هذا بالنسبة إلى المصادر غير العربية . أما أول إشارة لهم فى المصادر العربية أى الـــروس ، فقد جاءت على لسان اليعقوبى عند حديثه عن الأندلس ووصف مدن هـــذا الإقلـــيم : (وغربى المدينة – التى يقال لها الجزيرة – مدينة يقال لها أشبيلية ... دخلها المجوس الذين يقال لهم الروس سنة ٢٢٩ هـــ فسبوا ونهبوا وحرقوا وقتلوا)[٣] .

أمـــا المسعودى فيذكر : (وقد كان الثلثمائة وردوا إلى الأندلس مراكب من البحر فـــيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم وزعم أهل الأندلس أنهم ناس من المجوس تطـــرأ إلـــيهم فى هذا البحر كل مائتين من السنين وأرى والله أعلم أن هذه الأمة هى الروس إذ كان لا يقطع هذه البحار غيرهم)[٤] .

وكذلـــك ابـــن حوقل فى معرض حديثه عن مراكب الروس والترك والصقالية[٥] ويتضـــح مـــن ذلـــك أنه يقصد بالروس هنا النورمان أو أهل الشمال ، الذين ذكرهم المصـــادر العربـــية باســـم المجوس أو الأردمانيين الذين شنوا العديد من الإغارات على

(1) G. Vernadsky, History of Russia- Yala- 1145. P.P. 21-22.

(2) N. Baynes And. H. Moss, Byzantum, AnIntrodCtion to East Romen Civilization. Oxford. 1961. P. 398.

(٣) المسعودى : كتاب البلدان ، إبريل ، ١٩٧٦م ، ص ٣٥٤ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ط١ ، ص ١٦٣ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ، لندن ، ١٩٧٢م ، ص ١٦٣ .

الأندلس فى عام ٢٢٩ هـ / ٢٣٠ هـ / ٢٤٥ هـ[١] ، والذين كان يطلق عليهم فى العصور الوسطى الفيكنج Viking الذين سكنوا شبه جزيرة اسكندناوة والبحر البلطى[٢] .

وعرف البيرونى الكثير عن البحر البلطى وعن سكان الشمال وشرق أوروبا وخاصة هؤلاء النورمان الاسكندنافيين الذين يدعونهم باسم الروس أو الورنك أى: (الفارنجيين) Varegues ، كما جاء فى كتابات المؤرخ الروسى فطور[٣] .

ويبدو أن المؤرخين العرب خلطوا بين أجناس الفيكنج ، ولم يفرقوا بين الدانيين الذين هاجموا بلاد الأندلس وبين السويديين الذين ارتحلوا إلى البلاد الروس واتحدوا مع السلاف .

ويذكر البيرونى : (وأما فى مغرب المعمورة ... البحر المحيط ويسميه اليونانيون أوقيانوس يمتد نحو الشمال بمحاذاة أرض الصقالية ويخرج منه خليج عظيم (أى بحر البلطى) فى شمال الصقالية ... ويعرفونه ببحر ورنك وهم أمة على ساحله)[٤] .

وكلمة الورنك أو الفارنجيين تعنى عضو اتحاد التجار ، وهى مشتقة من الكلمة الاسكندنافية فار Var أى العهد أو العقد — وتشير كلمة الورك إلى مغامرة النورمان الذين ارتبطوا بعهد أو تضامن ، كما تعنى الأحلاف فى لغة الشماليين؛ وعلى هذا فإن إشارات اليعقوبى أو المسعودى وابن حوقل قد أرجعت الروس إلى النورمان وأهل الشمال إلى الفيكنج . أما إشارة البيرونى فقد حددت انتماء الروس على فرع واحد من

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ط٣ ، ١٩٣٦م ، ص ١٢٠ ، ابن عذارى البيان ، ط٢ ، ١٩٥٠م ، بيروت، ص ١٢٩ — ١٣٢ ، ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ١٩٨٢م ، القاهرة ، ص ٧٨ — ٨١ .

(٢) فشر : أوروبا العصور الوسطى ، ط١ ، ترجمة محمد مصطفى ريان والسيد الباز العربنى ، ١٩٦٨م ، القاهرة ، ص ١١٥ .

(٣) البيرونى : كتاب الفهم لأوئل صناعة التنجيم ، نشر : رمزى رايت ، اسكفور ، ص ١٢١ — ١٣٣.

(٤) ليلى عبد الجواد : تاريخ الروس ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، دار الثقافة العربية ، ص ٢ .

فـــروع النورمان أو الفيكنج وهو الفرع الإسكندنافى أو السويدى بصفة خاصة ، وقد سكن هؤلاء البحر البلطى أو بحر ورنك كما يطلق عليه البيرونى[١] .

ويرجع الباحثون الغربيون أصل الروس إلى أهل الشمال (النورمان) Northman، وقـــد اســـتند هؤلاء على ما جاء أولاً : فى التاريخ المسمى The Russian Primary Chronicie الـــذى كتـــب فى القرن ١٢ وحدد (٨٥٢ — ١١١٠م) ، والذى يعتبر الروس شعبًا نورمانيا . وقد استند إلى ما جاء فى حوليات برتينانى Annales Bertiniani فى عـــام ٨٣٩ م أنهم وصلوا فى هذا العام إلى الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل يحملون هدايا ثمينـــة وخطابا للإمبراطور ، وأن الإمبراطور استقبل الرسل فى إنجلهـــيم (Ingelhim) وعـــندما ســـئل هؤلاء عن جنسيتهم ذكروا أنهم من الروس Rhos وأن مليكهم يحمل لقـــب خاقـــان Chacanus ، وتحرى الإمبراطور عن هؤلاء الروس ، ودل البحث فى شخصـــيتهم على أنهم من أهل السويد Suedois . ويتضح من هذا الأصل الاسكندنافى للروس أنهم من السويديين كما ذكرنا سابقا[٢] .

إن الفانـــيين (Finnois) والفنلـــنديين أطلقـــوا على العناصر الشمالية التى تغلغلت بلادهـــم وخاصة الورنك اسم ريوتسى Ruotsi ، ومن ثم فهو فى الروسية (روسى) ، وأصـــل كلمتى ريوتسى وروسى كلمة اسكندنافية تعنى المجدفون أو هى لفظ فنى يعنى النواتـــية أو البحارة ، وقد التصقت بهم هذه التسمية وصارت علما جغرافيا على جميع البلاد التى حلوا بها منذ عام ٨٦٢[٣] .

---

(١) البيرونى : المراجع السابقة ، ص ١٢١ .

(2) Obolensky, Byzantin Commonwealth Eastern Europe 500- 1453. London. 1971. P.P. 181. I Cam. Med. His V. 4. Part. I. 1964. P.P. 96-504.
Flornsky: Russia, V.I. New York- 1953- P.P. 15- 16.
Mawer: The Vikings. P. 327. I Rambaud: Histaire de La Russie.

(3) Minorsky (ed) Hudud al Alam- London- 1937. P. 432. Pares: A History of Russia- London- 1962. P. 54.

إن عددا كبيرا من أسماء أمراء الروس كانت أسماء اسكندنافية مثل : روريك Rurik – Hroereek وأيجور Ingvar – Igor وغيرها[١] .

وهناك رأى آخر أورده ابن خرداذبه فى أصل الروس ، فعندما تحدث عن التجار الروس ذكر : (إنهم جنس من الصقالية) ، وعند حديثه عن مسلك هؤلاء التجار ذكر أيضا : (إنهم يسيرون فى تنيسى نهر الصقالية)[٢] .

وعلى هذا فقد أرجع ابن خرداذبه أصل الروس إلى الصقالية أو السلاف ، ويتفق مع رأى الباحثين الروس الذين يرجعون أصل الروس إلى قبيلة سلافية كانت تسمى بالروس Ros أو Rus وكانت هذه القبيلة تعيش فى منطقة السهوب ، وكانت مدينة رودون Roden هى مركز هذه القبيلة وسرعان ما تعرض سلاف السهوب لهجمات من جانب كل من القوط والهون والأفار الذين اجتاحوا البحر الأسود ، ونتيجة لهذه الهجمات اتحدت قبائل السهوب السلافية وكونت تحالفا قبليا كبيرا بزعامة قبيلة الروس هذه وأخذ هذا التحالف اسم هذه القبيلة أى اسم (الروس) وذلك فى القرنين: السادس والسابع الميلاديين . كما اتخذ هذا التحالف من مدينة رودون Roden والأراضى التى تجاور نهر الروس أى إقليم الدنيبر الأوسط مركزا له ، ثم ما لبث هذا التجمع القبلى أن نقل مكانه إلى مدينة كييف مركز البلويتز Polianes شعب السهل جيران الروس الشماليين ، وسرعان ما تحول هذا التجمع إلى دولة إقطاعية تحمل اسم الروس[٣] .

وإذا كان ابن خرداذبة قد اعتبر الروس من جنس الصقالية ، واتفق معه الدارسون السوفييت ، فإن المقدسى يفصل تماما ما بين الروس والصقالية إذ يذكر : (ويتاخم بلدهم (أى الروس) بلد الصقالية فيغيرون عليهم ويأكلون أموالهم وبيوتهم)[٤] .

---

(1) Rambaud, Histoire de la Russie. P. 39.

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، إبريل ، ١٨٨٩ م ، ص ١٥٤ .

(٣) ليلى عبد الجواد ، تاريخ الروس ، ص ١١ .

(٤) المقدسى : كتاب البدء والتاريخ ، ط٤ ، ص ٦٦ .

أمـــا ريـــباكوف Rybakov يذكر أن هذا الفصل لا يعنى تعارض مكان الصقالية ووصفهم بالنسبة للروس ، ولكن هذا فقط على الصعيد الجغرافى ، وفى الفترة التى كان الروس يستعدون فيها لإقامة دولة لهم و لم يكونوا قد اتحدوا مع السلاف الشرقيين[1] .

وفى القـــرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى وبعد أن قامت دولة الروس يذكر ابن حوقـــل : أن الـــروس اسم المملكة والناحية لا للناس والقبيل ، ونستنتج من ذلك أن الروس أصبحوا معنى سياسيا .

ويبدو من ذلك كله أن للمصادر العربية آراء مختلفة حول أصل الروس ، فمنهم من يـــرى أنهـــم مـــن النورمان أو أهل الشمال بصفة خاصة الاسكندنافيين ، ومنهم من اعتـــبرهم مـــن الصـــقالية ، وليس هذا الأمر بغريب فقد حار الغرب بدوره فى تحديد أصلهم ، ويرجح أنهم من الفرع الشرقى من الفيكينج (أى السويديين) الذين سرعان مـــا امـــتزجوا بالسلاف الشرقيين وقبلوا أن يطلق عليهم اسم الروس الذى سرعان ما أصبح علما عليهم .

طبوغرافية بلاد الروس :

إن هجرة السلاف الشرقيين جاءت بهم إلى المنطقة المعروفة الآن بالسهل الروسى ، ويمـــتد هـــذا السهل من أوروبا الشرقية إلى سيبريا الوسطى ، ومن المحيط المتجمد إلى جـــنوب جـــبال الكاربثيان Carpathian والبحر الأسود القوقاز وبحر قزوين Caspain وجبال آسيا الوسطى . وتعتبر سلسلة جبال الأورال هى التى تشكل شطرا شماليا جنوبيا ويصـــل ارتفاعها فوق ١٢٠٠ قدم . أما الطرق المائية للسهل الروسى والتى يبلغ طولها حـــوالى ٧٥٠٠٠ ميل تساعد على التغلب على عوائق امتدادها العظيم ، وتعتبر الأنهار متعددة وطويلة وصالحة للملاحة .

ويمكن الوصول إليها من واحد إلى آخر بواسطة الأنهار والبحيرات معا ليصبح النقل الـــبحرى ممكنا تقريبا من أى اتجاه . ويعتبر نهرا الدنيبر والفولجا رابطين لأعظم خطين

(1) Rybakov, Early Centuries. P.P. 9- 17.

مائيين فى روسيا ، ويمر خط البحر البلطيقى إلى البحر الأسود من خلال بحيرات عظيمة، ومن هذه البحيرات يمكن الوصول إلى بحر البلطيق والبحر الأبيض[١] .

أما الإقامة على السهل الروسى فحينما اقترب السلاف الشرقيون من السهل الروسى فى القرنين السادس والعاشر اختاروا أن يستقروا فى أراضى الإستيبس التى يسهل الوصول إليها جغرافيا والمرغوب فيها اقتصاديا بالنسبة للغزاة . وكان مجيء الفارزار Farther إيذانًا بالحروب فقد بدأوا فى تأسيس حكمهم فى المناطق المملوءة بمياه نهر الفلجا والدون . إن هؤلاء الذين حاولوا الدخول إلى المنطقة عبر الساحل الشمالى للبحر الأسود وجدوا مستوطنات ومستعمرات تجارية ورومانية فى طريقهم ، وفى أراضى الغابة الشمالية كانت القبائل الأصلية[٢] أقل عددا وأكثر ضعفا من قبائل الإستيبس ، ونتيجة لذلك كان السلاف قادرين على تمكين أنفسهم من مناطق البلطيق التى سكنتها قبائل اللتوانية واللتيية والليفية ، وكانوا قادرين على المطالبة بتوسيع مناطقهم ولكنهم استطاعوا تحقيق ذلك ببطء . وقبل نهاية القرن التاسع كانوا قد شغلوا أجزاء صغيرة مما يسمى الآن بروسيا الأوروبية ، وقد وصلت المستوطنات الرئيسية لهم شمالا إلى بحيرة لادوجا وجنوبا إلى الدنيبر Dinieper الأوسط والدنيستر Dinester وشرقا إلى نهر أوكا Oka .

استقرارهم وبداية تكوينهم :

قبل القرن التاسع كانت حياتهم قوامها العشيرة التى تعيش فى بيوت خشبية وتحرث الأرض بواسطة المحاريث البدائية التى تجرها الخيول والثيران واعتمدوا على تربية المواشى والصيد فى الأنهار ، فكانت حياتهم الاقتصادية ضعيفة تعتمد على البحث عن أراضٍ ومستوطنات جديدة ، وكانوا كثيرى التنقل بسبب تهديد القبائل الأقوى لهم . أما معتقداتهم الدينية فقد انعكست عليها المعتقدات الدينية للسلاف الشرقيين على مستوى إنجازهم الحضارى ، وكان العالم يمثل لهم وجود حياة غامضة مليئة بالأرواح الطيبة

(1) Sidney, op. cit. P. 36.

(2) Obplenky, companion To Russian Studies an Introduction to Russian Histoty. P.P. 246.

والخبيـثة ، ولقـد تعـددت آلهتهم ومن أمثلتها : بيرون Perun إله الرعد واستريبوج Stribog إله الرياح وغيرهم .

ولم يكـن لديهم كهنة قائمون بالخدمات الدينية ولكن كانوا يلجئون إلى السحرة لاسترضاء الأرواح الشريرة . وبُنى تنظيمهم السياسى على العشيرة كما ذُكر ، وكانت العشـيرة تحت قيادة أكبرهم سنا وهى التى تسن لهم القوانين ، وتمثل مصدر العدالة ، وكانـت القبائل تعيش بصورة مفككة إلا فى حالة الحرب واجتياح الأعداء المفاجئ . ومـع مرور الوقت بدأت العشيرة تفقد أهميتها[1] وبدأت المدن تدريجيا بالظهور ، وقد دعـم نمـو المدن والأحياء الاقتصادى لمدن أوروبا الغربية والشمالية والامتداد الناتج للـتجارة بـين أوروبا وآسيا الذى نمت فيه أعظم المدن السلافية مثل : كييف Kiev وشـيرنيجوف Chernigov على طول نهر الرود . وقد ربحت هذه المدن الأخرى من الـتجارة النامـية والتى تمثلت فى السلع المهمة مثل : العسل والشمع والعبيد التى نقلها الـتجار وغيرهـم إلى القسـطنطينية المركز التجارى الرئيسى للإمبراطورية البيزنطية والعربـية، وهناك تبادل شحنات الحرير والعطور والتوابل والرماح والسيوف والمعادن النفيسة .

ولقد كان لنمو المدن أثر اقتصادى واجتماعى وسياسى فى حياة السلاف الشرقيين، وقـد كـان فى كل مدينة مجلس عام يتكون من الذكور ، ومن وقت لآخر يعين لهذا المجلـس الأمير الذى يتعهد هو ورجاله بواجب حماية المدينة . أما المغامرون من الرجال فكـانوا هم القادرين على التقدم ماديا ، وغالبا ما كان هؤلاء المغامرون يتعاونون مع الأمـير . ومع مرور الأيام بدأت تختفى تدريجيا الطبقة المؤسسة للثروة لتظهر الطبقات الوسطى بوضوح .

تنمية القوة فى كييف وازدهارها :

كانـت بدايتها القرن العاشر ، وكان الروس المؤسسون فى كييف على درجة من القـوة يكفـى لأن يستخدموها كقلعة لحماية تجارتهم الموجودة على الدنيبر Dnieper

(1) Sidney, Op. Cit. P. 7.

ومن الأخطار الممتدة فى طريقهم إلى القسطنطينية[١] أثناء المائة سنة التالية . وأثبت الأمراء الكييفيون قدرتهم على تقوية مراكزهم وتوسيع سلطتهم على القبائل والمدن الموجودة على طول نهر الرود بالإضافة إلى ضم مناطق جديدة للدولة المسيطرة عليه . ولم يكن تقدمهم سريعا ولا سهلا بل عانوا فيه الشيء الكثير ، واستطاعوا بإصرارهم على العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية[٢] .

وعندما استولى سفايتوسلاف Sviatoslav بن إيكور (إيجور) ٩٤٥ – ٩٦٤م على الحكم بدأ عهد دولة كييف التوسعى ، إذ وجد المدينة قوية سياسيا واقتصاديا وعسكريا تكفى لتبرير محاولة امتداده للعالم الموجود تحت حكمه ، وقد اتجه أولا إلى الشرق بغزو الخزر Khazasrs[٣] وضم أراضيهم الموجودة على الفولجا Volga والدون don تنفيذا لأوامر الإمبراطور البيزنطى فاتجه بقواته إلى الغرب ضد البلغار Bulgar الموجودين على الدانوب Danube ، وهناك ضم أكثر من إقليم للدولة الكييفية .

ولقد أخذ البيزنطيون يتوجسون خيفة من توسع نفوذ دولة كييف فى جهات البلقان الشمالية ، لذلك خاض الإمبراطور حنا زيمسكس John Zimiscees معركة ضد سفايتوسلاف أجبره على الانسحاب من بلغاريا سنة ٩٧١م ، كما اشتبك الأخير عند رجوعه إلى كييف فى معركة مع قبائل البشناق Pecheneg ، التى أخذت تنهال على

---

(١) شكل الخزر حاجزا اقتصاديا بين تجار الشمال فى الأجزاء الشمالية الروسية والمناطق البلقانية – ولم يكن بمقدور الشماليين القيام بحركة عسكرية عامة ضد الخزر لقتالهم عدديا . لذا وجهوا الدعوة لأبناء جنسهم من الشماليين سنة ٨٥٦م فاستجاب الزعيم رويك لهذه الدعوة ، وكان هذا حكما على الأقسام الجنوبية من جوتلاند وفريزلاند ، وقاد جموعه نحو الجهات الروسية ، فأنشأ نوفوجورود وجعلها مقرا لإمارته سنة ٨٦٠م وتولى الحكم بعد وفاته أوليج Oleg بصفته وليا على إيجور . ويعتبر أوليج المؤسس الحقيقى لدولة كييف ، إذ تمكن من الاستيلاء على تلك المدينة سنة ٨٧٨م التى كانت يحكمها السويديون القدماء ، والتى أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لأسرة رويك الحاكمة . وأدى توسع دولة كييف جنوبا إلى الاصطدام مع البيزنطيين .

(2) B. Grkov, Kievrus. Moscow. 1959. p. 382.

(3) Vasilliev, Historyog the Byzantine Empire. Vol. I. Madison. 1964. 310 Vernadaty op. cit.

الجهـــات الروسية فى آسيا ، والتى أسفرت عن مصرع الأمير سفايتوسلاف ، وهذا ما نراه فى العلاقات الروسية البيزنطية[١] .

وهكـــذا أصـــبحت مديـــنة كيـــيف الروسية دولة لها كيانها تحت حكم سلالة ريوريـــك[٢]، وذلك لهيمنتها على مجموعة من المستوطنات الكبرى التى حكمتها حكما شـــاملا ، نشـــرت العـــدل بين ربوعها ، وأمنت شر جيرانها ، وتوسعت فى علاقاتها التجارية مع الدولة البيزنطية مما أدى إلى نمو ثرواتها ورسوخ واستقرار كيانها السياسى.

روسيا الكييفية :

رغم أن مناطق السهل الروسى كانت معبرا ومقرا للكثير من الشعوب والقبائل قبل مجيء السلاف الشرقيين ، إلا أنه لم ينجح أحد فى تكوين نظام حكم دائم ومستقر كما فعل الروس ولكن بعد التغلب على كثير من الصعوبات والعراقيل التى اعترضتهم.

أما عن بداية تأسيس دولتهم فلا يمكن استعراض الأحداث التى مرت بهم أثناء فترة ارتـــباطهم بالفارنجـــيين ، وذلـــك بسبب نقص المصادر الموثوقة فيذكر أن الفارنجيين الواثقـــين من قوتهم الفائقة بدءوا فى تجميع الضريبة من السلاف الشرقيين فى منتصف القـــرن التاســـع ، وأدى ذلـــك إلى ثورة السلاف الذين قاموا بدورهم وطردوهم إلى اســـكندنافيا ، ولكن هذه الفوضى لم تلبث أن تحولت إلى محاولات من السلاف لعود الفارنجـــيين مـــرة أخرة لحكمهم وتنظيم أمورهم واستقرار دولتهم التى بدأت بمجيء الإخـــوة الـــثلاثة الفارنجيين: ريوريك Rurik – سينوز Sineus وتروفو Truvor الذين اســـتجابوا للنداء وجاءوا مع أتباعهم المسلحين ، وقد نصب ريوريك نفسه أميرا على نوفوجـــورد Vovgorod وســـينوز أميرًا على بيلوزيرو Beloozero وتروفو أميرا على إيزوبورسك . وفى خلال عامين مات كل من سينوز وتروفو تاركين ريوريك حاكما عـــلى مـــناطقهم بيـــنما اهتم ريوريك بولايته الكبرى ، ونصب أتباعه من السلاف والفارنجـــيين عـــلى الولايات الأخرى فحرصوا على الاهتمام بولاياتهم وقاموا بإقامة

(1) Cam, Med. His. V. T. IV. P. 207.

(2) B. Qrekov, Kiev Rus. P. 365.

اتصالات تجارية ممتدة من الجوار . وبوفاة ريوريك عام ٨٧٩م اعترف بابنه إيجور كوريث له ولكنه كان طفلا صغيرا فنصب قريبا له يدعى أولج Oleg . ولقد أثبت أولج أنه أكثر طموحا وقوة من ريوريك فى توسيع وتقوية ولايته ، فقد استولى على كييف وأسس هناك حكما مركزيا على المدن الأخرى التى أخضعها والتى تشمل المراكز التجارية المهمة مثل : سمسولنسك ونوفوجورد .

والواقع أن أولج يعد من أشهر الحكام الذين أغاروا على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وهو الذى أجبرهم على دفع الجزية للروس عام ٩١١م[1] .

علاقة الروس بالبيزنطيين :

الواقع أن العلاقة بين الروس والبيزنطيين قامت على صراع دائم ، فأول إغارة قام بها الروس على الإمبراطورية البيزنطية كانت عام ٨٦٠م على القسطنطينية . والواقع أن الهجوم الروسى لم يستهدف الغزو من أجل السلب والنهب والغنائم ؛ لذلك عادت القوات الروسية بعد أن حققت أهدافها فيما رمت إليه .

ثم تجدد الصراع مرة أخرى فى عهد الإمبراطور لى يو السادس من ٨٧٠– ٨٨٦م، واقتحم الروس بقيادة أميرهم أولج Oleg المياه البيزنطية ووصلوا حتى أسوار العاصمة عام ٨٩٧م ونجح الروس فى إنزال بعض الخسائر ببعض المواقع البيزنطية وانتهى الأمر إلى التفاوض بعقد اتفاق بين الطرفين ، وتجدد هذا الاتفاق مرة أخرى عام ٩١١م فى عهد الإمبراطور قسطنطين السابع الإمبراطور البيزنطى ونصت بنود هذا الاتفاق على منح تسهيلات وامتيازات تجرية فى الأرض البيزنطية واستمر السلام قائما بين الطرفين لمدة ثلاثين عاما انتعشت خلالها التجارة بينهم ، واستمر البيزنطيون فى سياستهم التى ترمى إلى كسب الروس إلى جانبهم .

وفى عام ٩٤١م تعكر صفو السلام بين الطرفين ؛ فقد قام الأمير الروسى إيجور بحملة فجائية على العاصمة البيزنطية ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور ورست القوات الروسية على الشاطئ الأسيوى للبسفور فى إقليم بثنيا Bithynia ونهبوا وسلبوا

(1) Sidney: op. cit., p. 11-12. B, Grekov, Kiev Rus. P. 366.

وعـــادوا بالغـــنائم ، فى الوقـــت الـــذى كانت القوات البيزنطية تحارب فى المشرق، فاستدارت القوات برئاسة حناكور أوكس John Cur Cuas وهزمت الروس شر هزيمة فى إقليم بثنيه وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحرى قـــاد حملة بحرية عليهم وهم يعدون العدة للانسحاب ونجح فى تدمير معظم سفنهم ، ثم عاود الروس الإغارة على الأراضى البيزنطية فى خريف عام ٩٤٤م واستعدوا استعدادا ضـــخما هـــذه المرة وتحالفوا مع البشناق لضرب الإمبراطورية البيزنطية ، وحدود نهر الدانـــوب بـــدلا مـــن الشـــاطئ الآسيوى ليكونوا على مقربة من البشناق ، ولكن الإمبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة الروس والبشناق لاشتغالها بحروبها فى الشرق. فعقدت معاهدة تجارية كانت لصالح الروس . ثم ساد السلام بينهم وتوطدت[١] أركان الصـــداقة ، عـــندما زارت الإمـــبراطورية أولجـــا أرملة إيجورد - الوصية على العرش الروسى - القسطنطينية عام ٩٥٧م حيث تم استقبالها استقبالا حارا ، وعمدها بطريق الإمـــبراطورية عـــام ٩٥٦م — ٩٧٠م وسميت باسم هيلينا . والبعض يرى أنها اعتنقت المســـيحية قـــبل ذلـــك بعدة سنوات .. والواقع أن هذا الحدث فتح عصرا جديدا فى العلاقـــات بيـــنهم وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أرضا صالحة للقيام بعملها التبشيرى فى روسيا[٢] .

ونتـــيجة لهزيمة البلغار على أيدى الروس زاد طمعهم فى الممتلكات البيزنطية . ففى عام ٩٧٠م تقدم الأمير الروسى سفيا توسلاف إلى الحدود البيزنطية ودخل تراقية وأخذ يلتمس طريقه إلى العاصمة البيزنطية ، الأمر الذى أثار الذعر فى القسطنطينية ، ولم يعد

---

(١) محمود عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، بيروت ، ص ١٨٩ — ١٩١.

Rambaud, A, Empire Grecau Dixieme Constanantin Por Genete. Paris 1870. p.p. 380- 381.

Cam. Med. IV. P. 207.

(2) Schiumberger, G, UN Empete Ur byzantin Siecle Niecphore. Paris. 1980- 563.

أمام زمسيكس سوى الحرب فاستدعى قواده الكبار وتقابل الجيش البيزنطى مع القوات الروسية فتظاهر البيزنطيون بالانسحاب ، الأمر الذى أطمع الروس فى ملاحقتهم وكانوا قد أعدوا لهم الكمائن فى الأماكن التى تراجعوا منها وسدوا المنافذ التى يمكن للقوات الروسية استخدامها ونجح سفياتوسلاف فى هذه المرحلة فى ضم المجر والبشناق إلى جانبه ، فضلاً عن أمراء البلغار ، واغتر الأمير الروسى بما تحت يديه من قوات وتقدم خلف القوات البيزنطية حتى دخل منطقة الكمائن ، وفى الوقت المناسب ضربت القوات البيزنطية ضربتها وانتصرت انتصارا ساحقا على الروس وحلفائهم بالقرب من مدينة أدرنة واضطرت القوات الروسية إلى الانسحاب إلى بلغاريا .

وانشغلت الإمبراطورية البيزنطية ولكنها لم تهمل الجانب الروسى، ففى عام ٩٧٢م أعد يوحنا زمسيكس جيشا قويا ، كما أبحرت البحرية البيزنطية من نهر الدانوب ، وفى بريلاف نشبت معركة بين الجانبين انتهت بانتصار القوات البيزنطية انتصارا ساحقا وهلك عدد كبير من القوات الروسية وكانت كارثة من أعظم الكوارث التى حلت بالروس فى هذه المرحلة من الزمن، ووقع العديد من الأسرى فى أيدى القوات البيزنطية، وبعد هذه الأحداث فر الأمير الروسى إلى مدينة سيلستريا Silistria على نهر الدانوب فتتبعه يوحنا وانضم إليه الأسطول البيزنطى القادم من الدانوب غربا وهلك الروس فى هذا الحصار ، وانتهى الأمر بأن عرض الأمير الروسى الصلح على يوحنا فقبله[1] .

فى هذه المعاهدة عرض عليه أن يسلم سيلسترا ، ويجلو عن بلغاريا ، وأن يعيد الأسرى ، مقابل أن يسمح له بالعودة إلى بلاده مع من تبقى معه فى الجيش الروسى، وألا تتعرض لعساكره السفن التى تحمل النيران الإغريقية ولما لم يكن لديه من القمح ما يكفى لمؤونة جيشه ، طلب إلى الإمبراطور أن يمده بالقمح اللازم لجنده ، ثم طلب آخر الأمر أن يعتبر البيزنطيون ، الروس من بين الأمم الصديقة للإمبراطورية ، وأن يسمح لهم بالقدوم إلى القسطنطينية لبيع ما لديهم من السلع ، وتعهد الروس أيضا ألا يغيروا

---

(1) Schlum berger: LE popce. I. P. 52.

محمود عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

على أطراف الأرض التابعة لمدينة خرسون Cherson فى شبه جزيرة القرم ، والتى تعتبر آخر ما للإمبراطورية من ممتلكات على الشاطئ الشمالى للبحر الأسود ، وتعهد الروس أيضا أن يبذلوا المساعدة للبيزنطيين فى رد كل عدو أجنبى ، وأعلن زمسكيس قبوله لما تقدم به سفياتو سلاف من مقترحات وأنقذ الصلح . وتم إرسال القمح إلى من تبقى من الجند الروس وحلفائهم وعدهم اثنان وعشرون ألف مقاتل ، وتجدد أيضا ما كان للروس من امتيازات تجارية ، ثم جرى اللقاء بين سفياتوسلاف وزمسكيس وتلا هذا الاجتماع توقيع المعاهدة بين الروس والبيزنطيين .

وبعد أن تم عقد المعاهدة ، اتخذ سفياتوسلاف طريقه فى نهر الدانوب حتى وصل إلى الشلالات وحيث احتشد البشناق متربصين له[1]، إذ إن أهل بريسلاف أرسلوا إلى البشناق يخطرونهم أن سفيا توسلاف حصل من البلغار على غنائم وفيرة ، وليس فى صحبته إلا جماعة قليلة العدد ، فأعد البشناق له كمينا هو رجاله وعند الشلالات قرب مصب النهر أخذت الأقوات تنفد من عند الروس وحلت بهم مجاعة شديدة وتحتم على سيفاتو سلاف أن يمضى الشتاء فى هذا الموضع (جزيرة Bielo Berejie) وعند حلول فصل الربيع أزمع المسير غير أنه تعرض له أمير البشناق ويدعى كوريه Kouria فاغتال سفياتو سلاف واحتز رأسه . وترتب على هذا الانتصار الكبير نتائج مهمة :

١ — تتمثل فى أن الإمبراطورية تخلصت من عدو خطير ، ظهرت قوته باستيلائه على مملكة الخزر ، وإخضاع البلغار .

٢ — أن بلغاريا أضحت تحت السيادة البيزنطية ، فعلى الرغم من أن زمسكيس فى أثناء قتاله ضد سفياتو سلاف ، وعندما أطلق سراح بوريس الملك البلغارى وأسرته من أسر الروس أعلن أنه نهض للانتقام للبلغاريين لما تعرضوا له من أذى الروس وقسوتهم ، فإنه لم تتوفر عنده النوايا الخالصة لإعادة نظام الحكم القديم .

---

(1) Ostogorowski: op. cit. p. 261.

وبعد موته بدد أبناؤه بواسطة الصراعات الأخوية قواتهم حتى ظهر من هو جدير بحمل المسئولية ، وكان فلاديمير Valdimir — ٩٧٨ — ١٠١٥م قد واجه مهامًّا صعبة لإعادة بناء دولته فى ظل نظام جديد ، واستطاع أن يحقق كثيرا من الإنجازات ، وأن يعيد البناء مرة أخرى على أساس اقتصادى قوى عمل له فى السنوات الماضية[١] .

ولقد أعقبت وفاة فلاديمير حروب أهلية أسفرت عن انتصار ابنه أيروسلاف ١٠١٩ — ١٠٥٤ ، وقد اهتم بتشريع القوانين وتقوية الكنيسة الأرثوذوكسية ، واعتمد فى سياسته الدينية على الزعيم الروحى الروسى هيلاريون مؤسس الحركة الديرية الزوسية المسماة بالديرية الكييفية Monawtery of The Caves[٢] .

وتعتبر سنوات حكم هذا الزعيم هى السنوات المشرقة الروسية أو ما يسمى بالانتعاش الحضارى ، فقد استطاع أن يصل بروسيا الكييفية إلى أعلى درجات التقدم واستمرار الخطط التى بدأها فى السنوات الأولى من حكمه ، وقام بتشجيع وتوطيد العلاقات الاقتصادية الروسية مع كل البلاد الآسيوية والأوروبية حيث أصبحت كييف مكانا لتلاقى التجار البيزنطيين والعرب والألمان والبولنديين والمجريين والاسكندنافيين ، وأصبحت أيضا مركزا للتنميات الحضارية الروسية ، وقد قام ببناء المدارس والمكتبات وشجع الفنانين والمتعلمين والموهوبين ، ودفع الناس إلى الاتجاه إلى المساعى السلمية ، وبالرغم من أن روسيا الكييفية كانت مرتبطة اقتصاديا وحضاريا بالإمبراطورية البيزنطية إلا أنها اتجهت إلى إقامة روابط عائلية مع الأجزاء الأخرى من العالم أيضا حيث كان أيروسلاف نفسه مرتبطا بملوك إنجلترا وفرنسا والنرويج وبولندا عن طريق المصاهرة .

وفى عهده جمعت فى روسيا أول مجموعة من القوانين كانت مماثلة للقوانين البيزنطية لكن محتواها كان أفضل ، ومن بين الحقوق والأعراف عند كل من السلاف والإسكندنافيين والألمان أخذ الروس بعض النظم السياسية فى التجارة والاقتصاد .

---

(١) السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٥٣٣ — Ostogorowski. P. 262 .

(2) Vernadsky op. cit. p. 40.

وتعتبر السنوات ١٠٥٤ – ١٣٣٣ من سنوات الانهيار السياسى أو ما يعرف بالسنوات المظلمة، فعندما مات أيروسلاف ١٠٥٤م بدأ يختفى بريق السنوات المشرقة، وأملاً فى منع النزاع ترك لكل من ورثته الستة إدارة جزء واحد من هذه المملكة ، وأمر أبناءه الخمسة بطاعة الأكبر الذى سوف يحكم كأمير عظيم للكييف ، ويعتبر بذلك أنه أسهم فى تأسيس نظام جديد أدى إلى نتائج سلبية وإلى ضعف محقق لكييف ، لأن هذه الخطة لكى تنجح كانت تتطلب درجة أعلى من الوحدة السياسية والترابط الحضارى أكثر من الذى حققته روسيا الكييفية . وقد كانت قوة الأمير العظيم لكييف هى العامل الأساسى لربط العالم بالعائلة الحاكمة ليؤكدوا طموحهم فى السلطة والاستقلال ويشكلوا مجموعات مجاهدة ضد الأمير العظيم ، أو يجابهوا مع المنافسين الآخرين والمجرمين وآل كومنين قيام بيزنطة .

ثم تولى حكم كييف عام ١١١٣م أمير عظيم قوى نجح فى إخماد القوى وهو فلاديمير مونوماخ Valadimr Mon makh حفيد أيروسلاف ، وقد بذل جهدا كبيرا ليصل إلى اتفاق سلمى مع الأمراء المنافسين ، وبالرغم من أنه فشل فى إيجاد تنظيم عملى بينهم إلا أنه نجح فى صد البدو الموجودين على الحدود الروسية ، وأعطى الفرصة لكييف لتستعيد بعض رخائها السابق ، ولكنه لم يكن قادرا على تحويل قوة الهدم إلى قوى بناء . وبعد انتهاء عصر مونوماخ بدأت كييف تفقد قوتها كمركز للقوة السياسية والمدنية وبدأت مدن أخرى فى الظهور ، واكتسبت مدينة نوفوجورد Novgorod تفوقها شمالا وجاليسيا Galicia تفوقها غربا Suzdal وفلاديمير Valadimir شمال شرق ، وضعفت كييف بعد ظهور هذه المدن بصورة كبيرة . وفى عام ١١٦٩م حدث أن اتحدت القوات واجتاحوا المدينة ، وفى خلال ثلاثة أيام دمروها ونقلوا كنوزها وآثارها الحضارية[1] .

وهكذا ضعفت كييف ، وتضافرت عدة عوامل على القضاء عليها ، فالبدو العاملون فى شمال البحر الأسود قد منعوا التجارة مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا مؤشر خطير على اقتصاد كييف ، وأسهموا فى تدمير المدينة وضعفها .

---

(1) Sidney: op. cit. p.

وفى تلك الأثناء كانت الدولة البيزنطية تعانى من ضعف اقتصادى وسياسى مما أدى إلى انعدام الدعم الاقتصادى لكييف ، وأصبحت روسيا فريسة سهلة لكل مغير من القبائل المجاورة ، وقد كان العديد منها رابضا على الحدود :

١ – الكومانيون البدو الذين أزعجوا الولايات فى منطقة لاستبس .

٢ – اللتوانيون الذين جاءوا من المنطقة البلطيقية وبحثوا عن مستوطنة فى الولايات الروسية الشمالية .

٣ – السويديون الذين بحثوا عن كسب التحكم فى نيفا Neva ، وقطعوا التجارة فى نوفوجورد .

٤ – الهنغاريون فى الجنوب الغربى الذين جاءوا وواصلوا هجومهم ناحية الشرق .

٥ – التتار الذين اجتاحوا روسيا من منطقة القوقاز وجاءوا من الجنوب الشرقى[١] .

ونتج عن اجتياح هذه القبائل القاطنة على الحدود سقوط وانهيار كييف . وخلاصة القول : أنه لم يكن فى تاريخ دولة كييف ما يستدعى الانتباه سوى تنافس الأمراء وحروبهم الأهلية المدمرة وتحالفهم مع الهنفاريين والبولنديين والكومان ضد بعضهم البعض من ١٠٥٤ – ١٢٤٠م .

وليس عجبا أن تظل الحال على هذا المنوال فى روسيا فى العصور الوسطى ما دام حكامها من سلالة ريوريك يعتقدون أن الإمارة فى الدوقيات الروسية على اختلاف مدائنها إرث لا يتجزأ بل يتوزع بين أبناء الأسرة الحاكمة[٢] ، استنادا على قاعدة السن بحيث يكون الأكبر سنا هو الأعظم جاها والأوسع سلطانا مما جعل كل توزيع جديد مجالا لترقيات فى الأقدمية بحسب السن ، فضلا عن وجود ضغائن وأحقاد واختلافات لا نهاية لها بينهم .

---

(1) Sidney: op. cit. p. 17. 190.

Bayhes and Miss: Byzant ium (oxford) 1063. p.

(2) Vernadsky: op. cit. p. 40.

ومن هنا يتضح كيف كان من المستحيل أن تقوم بين دوقيات نهر الدنيبر دولة ثابتة الأركان ، برغم مجيء أوروسلاف إلى عرش الدوقية وهو الذى عرف باسم القانونى . ولكن أعقبت وفاته ١٠٥٤م مرحلة طحنت روسيا فيها بحروب متواصلة بين أبناء الأسرة الحاكمة. وفى أثناء تلك الحروب انتهك أحد الأبناء حرمة كييف سنة ١١٦٩م ونهبها وخربها وهى المدينة الهامة ذات الكنائس الأربعمائة ، وتجرأ ونقل الدوقية من كييف الواقعة على نهر الدنيبر إلى مدينة اختارها لنفسه ، وهذا الابن هو أندريه سوزدال الذى أسس مدينة فلاديمير والتى غدت ثانية العواصم الروسية[1] .

وبسقوط كييف تختتم المرحلة الأولى من تاريخ روسيا ، وهى مرحلة أتم الفارانجيون السويديون أثناءها الكثير من الأعمال الهامة .

التحول الدينى فى روسيا :

لقد كان انتشار المسيحية فى روسيا عملية تدريجية تبدأ بالطبقات العليا وتنتشر ببطء إلى الطبقات الأقل تمدنا ولكن هذا لا يعنى القضاء على الوثنية إذ استمرت العبادة السرية للآلهة الوثنية القديمة لعدة قرون عديدة . ولقد وجدت العناصر الوثنية طريقها حتى فى طقوس الإيمان الجديد ، ولكن تدريجيا بنيت بيوت العبادة وأسست الأديرة ودرب رجال الدين ، وبدأ الروس ينظرون إلى الكنيسة كمركزهم الروحى . وبعد ذلك انتشرت المسيحية فى كل مكان وعرفت البلد باسم روسيا المقدسة .

وفى الواقع ، إن تحول مملكة كييف الروسية إلى المسيحية لا يحدد فقط بداية عصر جديد فى تقدم روسيا ، بل يشير أيضا إلى انتصار باهر لبيزنطة واتساع مجال التأثير البيزنطى إلى مدى لم يكن متوقعا ، وخضعت أكبر أمم السلاف ووضعت نفسها تحت القيادة الروحية بالقسطنطينية ، وأدارها من البداية مطارنة بيزنطينيون أرسلتهم بيزنطة لهذا الغرض ، ولفترة طويلة ظل التقدم الحضارى لروسيا يسير تحت الحماية البيزنطية . وفى عهد فلاديمير ربطت علاقة هامة بين بيزنطة والأمير الروسى الذى ارتبط

---

(١) فشر : تاريخ ، ط١ ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ . Cam. Med- His, VII- p. 600 - 602 .

اسمه بدخول المسيحية ، ذلك أنه عندما تمرد بارداس فوكاس Bradas Fkacas ضد الإمبراطور بازل الثانى Basil II وهجم مع أتباعه فى إقليم آسيا الصغرى على العاصمة عندما هجم البلغارى فى نفس الوقت على أراضى الإمبراطورية من ناحية الشمال أرسل بازل الثانى يطلب العون من الأمير الروسى .

وعقد الاتفاق بين الاثنين تعهد فيه فلاديمير أن يرسل ٦٠٠٠ جندى روسى لخدمة بازل الثانى ، كما وعد الأمير الروسى أن يعتنق هو وشعبه الديانة المسيحية على شريطة أن يزوج الأمير الروسى من شقيقة بازل الثانى وهى الأميرة Anne . وقد أرسل الأمير الجند الذى وعد بإرسالهم ، وتمكن بازل بمعونتهم من أن يخمد حركة تمرد فوكاس ، غير أن بازل لم يف بوعده الخاص بالأميرة . فهاجم فلاديمير مدينة خرسان (Cherson) فى شبه جزيرة القرم Crimean واستولى عليها انتقاما من الإمبراطور ، وهنا اضطر بازل الثانى إلى أن يفى بوعده واعتنق فلاديمير المسيحية وتزوج من آن Anne ويحدد تاريخ المسيحية رسميا فى روسيا بعام ٩٨٩م . وبعد ذلك صارت العلاقات بين الجانبين علاقات حسنة[١] .

ويعتبر دخول المسيحية إلى روسيا تحولاً جديدًا فى حياتهم ، ويعتبر هذا الدين المسيحى المدعم بواسطة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة الذى عرف باسم الأرثوذكس الشرقية أو الأرثوذكس اليونانية[٢] .

ظهرت هذه الكنيسة نتيجة للعديد من الانشقاقات التى دمرت الوحدة الأصلية للكنيسة المسيحية ، وبسبب هذه الانشقاقات تطور مركزان دينيان رئيسيان وهما : روما والقسطنطينية ، وبالرغم من أن الانفصال النهائى لم يحدث حتى عام ١٤٠٥م إلا أنه قد ظهر مركزان دينيان مميزان فى القرن التاسع وهما: الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومركزها فى روما ، وكنيسة الأرثوذكس الشرقية ومركزها فى القسطنطينية .

---

(١) محمود سعيد عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ص ٢١١ .

(2) Schiumberger: L, Epopel. P. 759. Sidney: op. cit. p. 11 – 12.

إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المتطورة تحت التأثير البيزنطى اكتسبت خصائص مميزة كانت تتسم بالتأثير اليونانى أكثر من الرومانى ، وحكمت بواسطة الأباطرة البيزنطيين ، وأثناء القرن العاشر كان العديد من الطبقات العليا الروسية متأثرين بالحضارة البيزنطية ، ومال الأمراء الحاكمون إلى الإيمان ببيزنطة .

وفى عام ١٩٨٨م استقبل فلاديمير فى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وبعد ذلك بعامين أعلن المسيحية كديانة رسمية لبلاده وأمر كل الخاضعين له بأن يتنصروا. وبعد ذلك بدأ بتنظيم الكنيسة فى روسيا فجعل مركزها الرئيسى فى كييف وعرف رئيسها بالمطران ، وأصبح تابعا لبطريرك القسطنطينية ، وكان المطران المعين واحدا من اليونانيين ، وكان الكهنة والأساقفة فى البداية من اليونان أو البلغار وقد اتبعت كنيسة الأرثوذكس عامة اللغة الدارجة للمناطق التى توغلت فيها ، لكن لغة الكنيسة السلافونية التى تطورت فى بلغاريا كانت مرتبطة بشدة باللغة المتحدث بها فى روسيا ، لذلك كانت تستخدم كلغة دينية . وحروف اللغة السلافونية المؤسسة على حروف اللغة اليونانية تطورت فى الجزء الأخير من القرن التاسع بواسطة سيريك لكى يستطيعوا أن يترجموا الأدب الدينى إلى اللغة الدارجة عن السلافة الشرقيين والغربيين ، وهكذا يسهل تحولهم الدينى .

لقد ترجم ميتوديوس أخو سيريل الإنجيل إلى اللغة السلافونية ، وهذه الترجمات كانت أولا أدبًا مكتوبًا متاحًا للروس ، وأصبحت نموذجا لأدبهم الدينى فيما بعد ، ولقد استخدم أدبهم الدنيوى اللغة السلافونية حتى القرن الثامن[1] .

(1) Sidney: op. cit. pp. 12- 13.

الخاتمة

١ — اختلاف المؤرخين ، واختلاف المصادر حول أصل الروس ، فمنهم من يرى أنهم من النورمان أو أهل الشمال بصفة خاصة من الاسكندنافيين ، ومنهم من اعتبرهم جنسًا من الصقالية (السلاف) .

٢ — إن هجرة السلاف الشرقيين إلى المنطقة المعروفة بالسهل الروسى أدى إلى انتشارهم فى هذا السهل من أوروبا الشرقية إلى سيبيريا الوسطى ، ومن المحيط المتجمد جنوبا إلى جبال الكارثيان والبحر الأسود والقوقاز وبحر قزوين وجبال آسيا الوسطى .

٣ — تعتبر كثرة الأنهار وتعددها وطولها هى السبيل الوحيد والتى أدت إلى سهولة الغارات والتنقل البحرى ، ويعتبر نهرا الدنيبر والفولجا رابطين لأعظم خطين مائيين فى روسيا .

٤ — قبل القرن التاسع الميلادى كانت حياة الروس قوامها العشيرة التى تعيش فى بيوت خشبية وتعتمد على تربية المواشى والصيد فى الأنهار ، وكثرة التنقل . أما حياتهم الدينية فليس لديهم كهنة قائمون بالخدمات الدينية بل كانوا يلجئون إلى السحر ، وكان العالم يمثل لهم حياة غامضة مليئة بالأرواح الشريرة . أما حياتهم السياسية كان قوامها العشيرة ، ثم بدأت المدن فى الظهور تدريجيا ومن أعظم المدن السلافية : كييف، شيرنيجوف ونوفوجورد .

٥ — تنمية القوة فى مدينة كييف كانت فى القرن العاشر ، وبدأت باستيلاء سفايتوسلاف بن إيجور ٩٤٥ — ٩٦٤م على الحكم ونمت هذه الدولة وأصبح لها كيان تحت حكم سلالة ريوريك .

٦ — روسيا الكييفية وبداية تنظيم الولايات واستقرارها كان بمجىء الإخوة الثلاثة من أسرة ريوريك الذين حرصوا على الاهتمام بولاياتهم ، وقاموا بإقامة اتصالات تجارية ممتدة من الجوار .

٧ — مواصلة أولج المسيرة ، وإثباته أنه أكثر طموحا وقوة فى توسيع وتقوية ولايته.

٨ – علاقة الروس بالبيزنطيين .

تراوحت تلك العلاقة بين الروس والبيزنطيين بين صراع وسلم . ففى البداية قامت على صراع دائم وإغارات مستمرة بدأت منذ عام ٨٦٠م على القسطنطينية . والواقع أن ذلك كان من أجل السلب والنهب والغنائم ، ثم دخلت مرة أخرى فعقدت بينهم معاهدة تجارية ٩٥٧م دعمت بريادة امبراطورأولجا ، ثم عادت للحرب والغزو مرة أخرى ، ثم وقعت معاهدة صلح نتج عنها توطيد العلاقات بين الطرفين ١٠١٩ – ١٠٥٤م .

٩ – التحول الدينى فى روسيا : الانتشار للديانة المسيحية فى روسيا كان تدريجيا وبدأ بالطبقات العليا ، ولكن هذا لا يعنى القضاء على الوثنية ، إنما استمرت العبادة السرية للآلهة الوثنية القديمة لعدة قرون ، ثم تدريجيا بنيت بيوت العبادة ، وأسست الأديرة ، ودرب رجال الدين وبدأ الروس على الكنيسة كمركزهم الروحى ، وانتشرت المسيحية فى كل مكان ، وعرفت البلاد باسم روسيا المقدسة .

١٠ – يعتبر دخول المسيحية على روسيا تحولاً جديدًا فى حياتهم ، ويعتبر هذا الدين المسيحى المدعم بواسطة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة الذى عرف باسم الأرثوذكس الشرقية .

١١ – إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المتطورة تحت التأثير البيزنطى اكتسبت خصائص مميزة ، وكانت تتسم بالتأثير اليونانى أكثر من الرومانى .

قائمة المصادر والمراجع

١ - ابن حوقل : (أبو القاسم بن حوقل النصيبي ت أواخر القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٧٢م .

٢ - ابن خرداذبة : (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت حوالى ٣٠٠هـ ٩١٢م) ، المسالك والممالك ، إبريل ، ١٨٨٩م .

٣ - ابن عذارى : (من كتاب القرن السابع عشر الهجرى) ، البيان المغرب ، ١٩٥٠م ، بيروت ، ط٢.

٤ - ابن القوطية : (أبو بكر محمد بن عمر ت ٣٦٧هـ) ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ١٩٨٢م ، بيروت .

٥ - البيرونى : (محمد بن أحمد ت ٤٣٠هـ ١٠٣٨م) ، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ، نشر رمزى رايت ، اكسفورد ، ١٩٣٣م .

٦ - خليل بيدس : العقد النظيم فى أصل الروسيين واعتناقهم الإيمان القويم ، بيروت ، ١٨٩٧م .

٧ - السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، بيروت / ١٩٨٢م .

٨ - فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، ١٩٦٨م ، القاهرة .

٩ - ليلى عبد الجواد : تاريخ الروس ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٠م ، القاهرة .

١٠ - محمد محمد أمين : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية .

١١ - محمود سعيد عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ط ، ٢٠٠٢م ، بيروت .

١٢ - المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسن ت ٣٤٦ هـ ظ ٩٥٧م) ، كتاب البلدان ، ليدن ، إبريل ، ١٩٧٦م .

١٣ - المسعودى : مروج الذهب ، بيروت ، ١٩٨٧م .

١٤ - المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨هـ ظ ٩٩٨م ، البدء والتاريخ ، ط٤ ، باريس، ١٩٠٧م .

١٥ - المقرى : أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ت ١٠٤١ هـ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محيى الدين ، ط٣ ، دار الكتاب العربى ، بيروت .

١٦ - الموسوعة العربية العالمية ، ط٢١ ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع .

قائمة المراجع الأجنبية

1- Baynes and H. moss: Byzantium an Introduction to East Roman Civilization' Oxtord. 1961.
2- Cam- Med- His. Part. I. 1964.
3- Chronique de Nestir (ed) Leger- Paris- 1884.
4- Durant. W,: The age Of Faith. 325- 1300- New York- 1950.
5- Edward acton: The Present and The Past, Russia- 1987- London.
6- Florinsky: Russia. V. 1. Newyork- 1953.
7- Francis Carr: Ivan The Terrible- 1981- New York.
8- Fennel Yohn: The Crisis Of Medieval Russia- 1200- 1304- London- Longman.
9- Grekov: Kiev Rus. Moscow- 1959.
10- Kluchevsky. (V): A history Of Russia Tr. C. Y. Itogarth- 1911- 1931.
11- Mawer: The Viking- Cambridge- 1930.
12- Minor skyu (ed): Hudud al- Alam- London- 1037.
13- Rybakov: Early Centuries of Russian History H. From The Russian by John Weir- Moscow- 1965.
14- Pares: A History Of Russia Methuen London. 1962.
15- Pirenne: A History Of Eyrope From The Invosions To The Xvi Century New York, 1955.
16- Rambaud: Histoire de La Russia Depuis Les Origines Insqua- Lan 1877- Paris.
17- Robert Auty and Dimitri Obolensky: Companion To Russian Studies an Introduction To Russian History, Cambridge.
18- Sidney Harcave: Russia A History. London- 1954.
19- Vasilliev, A. History Of Byzantin Empire. V I. (Madison) 1964.
20- Vernadsky. G. A History Of Russia Yala- 1954.
21- Oblonsky: Companion To Russian Studiesan Introduction To Russian History.